



م. علياء طه علي طه
taha-alia@hotmail.com

٤ العلاقات الأسرية تميز العمران السوداني (٢)

المجتمع السوداني مجتمع أسرة، ريفي في كثير من طباع وسلوك سكانه.

الريف مقابل المدينة، حيث عدم الازدحام عوضاً عن الازدحام، ومحدودية محال لتعدد الأنشطة، وهدوء ورتابة تخفف من سرعة إيقاع الحياة، وخمول بدلا من قلة أوقات الفراغ. وليس لذلك أي علاقة بالثروة والدخل وإنما بالحياة اليومية وما يمارس فيها من أشغال.

إن مدينة الخرطوم -وعادة ما تؤخذ لوصف المجتمع الحضري السوداني- أو فلنقل كل ولاية الخرطوم بمدنها الثلاثة لا يمكن بأي حال وصفها بالمدينة المزدهمة، وإنما بضعة أماكن وشوارع فيها. وهذا قد يعني خلافاً أو قصوراً في التخطيط العام لها، كما إن الأحياء السكنية في الخرطوم لا تشمل أبداً أماكن ذات كثافة سكانية عالية، وإنما اعتماد الحلول الأفقية والمسكن المنفصلة غير متعددة أو قليلة الطوابق يشمل تقريباً كل الولاية، وبهذا نستطيع أن نصفها بأنها ممتدة أو تغطي مساحة أرضية كبيرة.

وفي الخرطوم الأنشطة الاقتصادية الخدمية مزدهرة جداً، يساعدها على الازدهار مركزية الولاية وتأثيرها الكبير على ما هو حولها مع نمو السكان المتزايد، وتعتبر هي المورد المالي الأساسي للمدينة، أما الخدمات الإضافية الفكرية والدينية والسياسية والترفيهية والثقافية والفنية والرياضية فهي محدودة بأداء ضعيف لا يمكن وصفه بأي حال بالمؤثر، تتمركز بأماكن محدودة ولم تستطع غزو الأحياء السكنية، هذا بالطبع إذا استبعدنا كرة القدم!

إن رحلة العمل اليومية من المسكن إلى مكان العمل وبالعكس، بالنسبة لكامل الولاية تصل ذروتها في النطاق الضيق المسمى بمركز الخرطوم وهو منطقة المقرن والسوق العربي والوزارات وما حولها التي تجري المحاولات الآن لتفريغها، وتمتد بعد ذلك في شكل نطاقات طولية تتمدد من القلب إلى الأطراف وتتفرع منها شوارع المواصلات، ومقارنة بعدد القاديين من أطراف ما أسميناه بالمدينة الواحدة كبيرة الامتداد، يؤدي إلى ضياع الوقت والجهد والملل والفتور وتقليل القابلية للاستمتاع بأوقات الفراغ الإضافية، ليس هذا فقط بل أيضاً يقلل من الصلات والترابط الاجتماعي وهي من مزايا المجتمعات الريفية التي يحبذ وجودها في المدن ويتباكى على ضياعها.

أن الهجرات السكانية المستمرة من بقية أجزاء السودان لولاية الخرطوم، وهي متنوعة تمثل تقريباً كل السودان مع فترة الاستقرار الطويلة للأسر كونت تركيبة اجتماعية جديدة أو تصنيف سكاني جديد، يتمسك شكلياً فقط بجذوره القبلية القديمة، وتضعف علاقته معها، ولكن بحاله من شبه التماثل في الأصول عند التجاور والالتحام الاجتماعي.

إن الأحياء السكنية داخل ولاية الخرطوم يمكن تصنيفها إلى عدد من التصنيفات وهي أحياء قديمة، امتدادات، أو مناطق نزوح أو انتقالات نشأت حديثة، وهي مخططة أو عفوية، ومع أن المخططة لم تعتمد على دراسات مستمدة من العفوية، إلا إن طبيعة التخطيط تترك كامل المجال للسكان لخلق ما يريدون من حيث كيفية إشغال الأرض أو تفعيل النشاطات أو حتى التركيب والتكوين مع ضوابط بسيطة مثل اتجاهات الشوارع أو مرور الخدمات، وغالباً ما يتم تجاوزها!

ومع ذلك فإن النسيج العمراني للخرطوم لا نستطيع وصفه بأنه يعكس تماماً طبيعة السكان، حيث إن التجمعات السكانية والنشاطات المشتركة تعتمد على المناسبات الأسرية مثل الأفراح والمآتم وغيرها، ومع إن للتواصل الاجتماعي دور كبير في حياة الإنسان السوداني لم تفرد له مساحات خاصة بل عادة ما يتم قفل شوارع الأحياء لذلك، وإن كانت الآن الأفراح تقام في النوادي والصالات المغلقة التي ربما تكون بعيدة عن المساكن الأساسية للمحتفين، ولكن تبدأ وتستمر المناسبة في المنزل، ولا بد من الإشارة إلا إن طبيعة السودانيين في الحزن والفرح تشتمل على العديد من الطقوس المتشابكة التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تاديتهما بمكان آخر خلاف المسكن، ومن الاستعمالات الإضافية للشوارع إنها أماكن لالتقاء الشباب وكبار السن للتسليّة وتبادل الأحاديث، وللعبة كرة القدم بالنسبة للصغار. ولا ننسى إن بعض الأحياء السكنية المسبقة التخطيط تشتمل على مساحات خاصة للالتقاء الاجتماعي.

الذي يحتم النظر إلى المجتمع السوداني الحضري بكونه مجتمع أسرة، هو وجود النشاط الاجتماعي الجمعي على الرغم من عدم وجود مؤسسات خدمية لذلك أو محدودية تأثيرها، لذلك فإن لدور العلاقات داخل الأسرة ومع الجوار وعادة ما توجد صلة قرابة دم أو مصاهرة أكبر الأثر في تكوين النطاق السكني هناك.